مقياس: مصادر اللغة والأدب والنقد
ثانيا: مصادر الأدب
المحاضرة الثامنة: المجاميع الأدبية القديمة

تمهيد:

الأدب كلمة واسعة الدلالة في التراث العربي قديما وحديثا على حدّ سواء، "فهي تفيد فن القول الذي تبدعه القريحة من شعر ونثر، كما تفيد التهذيب والخلق الحسن" ومن هنا أفرد كثير من مصنّفي المصادر أبوابا للآداب على اختلاف أنواعها وأجناسها وأهدافها وطبيعة قائليها وأهدافهم في الحياة.

فالأدب من الناحية الاصطلاحية يضمّ الشعر والنثر والمقامة والخطابة والرسائل والألغاز والأمثال والحكم والمواعظ والقصص والوصايا والنوادر والأخبار والطُرف والسِّير وغيرها كثير، فالأدب لدى القدماء كان قريبا من مفهوم صنوف الفنون والثقافة التي نعهدها اليوم حتى إنه كان يضمّ شيئا من علوم التاريخ والجغرافيا والفلك وما سواها. وفيما يلي سوف نقوم باستعراض **طائفة قليلة جدا** من المصادر التي جمعت شيئا من الأدب بين دفّتيها ونالت شهرة واسعة وعاشت دهورا طويلة داخل المكتبات العربية وأقبل عليها القارئ العربي يستلهم منها الفن والفكر والعلم والثقافة:

1. كتاب (الحيوان) للجاحظ (ت 255 ه)

يعدّ هذا المصدر الأدبي من أقدم ما أُلّف في مجال الحيوان، إذا ما استثنينا تلك الرسائل التي أشرنا إليها في سابق المحاضرات والتي تزامنت وظهور كتاب (العين) للخليل الفراهيدي، والفرق واضح بين كتاب الجاحظ وبين تلك الرسائل فهي قد اكتفت بجمع الألفاظ الدالّة عل حيوان أو أكثر، فجاءت أشبه بالعمل المعجمي، أما كتاب الحيوان للجاحظ فهو موسوعة أدبية، وقد أشرنا سابقا عند حديثنا عن كتاب (البيان والتبيين) عن موسوعية الفكر الجاحظي، وقد قال عنه ابن النديم في الفهرست: "إنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الورّاقين".

نبذة عن الجاحظ:

من البصرة، وسمّي بهذا الاسم لجحوظ في عينيه،عمّر طويلا إذ شهد العصر الذهبي لمعتزلة منذ خلافة المأمون حتى انكسارهم في عهد المتوكّل. شهد الصراع بين أخلاط ينتمون لأجناس وفرق وديانات متعددة.

كان واسع الثقافة غزير المعرفة، تتلمذ على يد الأصمعي وأبي زيد الأنصاري والأخفش والنظّام.
أخذ الثقافة اليونانية من حنين بن إسحاق وسلَمَويْه، كما أخذ الفارسية من ابن المقفع.
امتاز الجاحظ بمخالطة الناس ومعايشة واقعهم عن قرب كما امتاز بروح الدعابة، وكان يكره التكلّف في الأسلوب وتنميق اللفظ وغموض الفكرة.

محتوى الكتاب:

انطلق الجاحظ - وهو البصري- من عالم الحيوان ليبثّ أفكارا كثيرة في هذا الكتاب، في شتى التخصصات من سياسة وجغرافيا وطبيعة وفلسفة، وكأن الحديث عن الحيوان جاء استفتاحا ومدخلا لا غير، وقد سبق الإشارة في محاضراتنا إلى أن أسلوب الجاحظ يتّسم بالاستطراد والإسهاب في الشرح والتحليل.

عندما تحدّث عن الحيوان أشار إلى بعض الموضوعات من قبيل تأثير الطبيعة على الحيوان والإنسان والشجر، كما تكلم على الطب وعلى الأمراض التي تصيب الحيوان والإنسان، ومن خلال ذلك كله أورد شيئا من الشعر والنوادر والأمثال.
ومن هنا نستنتج أن الكتاب جمع بين العلم والأدب شأنه شأن كتب المتقدمين، ولعل هذا واحدا من أسرار نجاح الكتاب الذي بين أيدينا اليوم. ويترجم هذا المنحى الشمولي الجامع بين العلم والأدب عند الجاحظ قوله في المقدمة: "وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وإن كان عربيا وإسلاميا جماعيا فقد أخذ من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة."
كما أن القارئ هذا الكتاب يجد ذكرا لصنوف عديدة من الحيوانات التي تواجدت في بيئة الجاحظ، من مثل: الأنعام والفيل والتمساح والنسر، فضلا عن الحشرات التي يعدّها القدماء من جنس الحيوان كالعنكبوت والنحل والنمل، فيما عدا السمك الذي لم يعطه اهتماما لبعده عن البيئة العراقية آنذاك.
ومثل العادة لا يفوت الجاحظ أن يبث في كتابه طرفا من الآراء الفلسفية لاختياره مذهب الاعتزال، فالقارئ يجد في كتاب (الحيوان) شيئا من المناظرات والجدال والإثبات والنفي كالمناظرة التي أوردها بين صاحبيْ الكلب والديك.

مصادر الكتاب:

تتجلى في القرآن والسنة النبوية والشعر القديم خاصة ما نظمه أهل البادية من توصيف للحيوانات أنيسه ووحشيّه، كما اعتمد الجاحظ على كتاب الحيوان لأرسطو الذي تُرجم إبان العصر العباسي.

الاستطراد لدى الجاحظ:

ضم كتاب الحيوان موضوعات شتى بعيدة عن مجال الحيوان مثل الحديث عن الشعر والنار والضيف وحفظ السر والأمانة والفراسة، فيتّضح إذن أن الجاحظ كان يستطرد كثيرا ويعود ذلك إلى كبر سنّه حين تأليف كتابه وإلى إصابته بمرض النقرس ومرض الفالج، نجده يقول عن ذلك: " وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أول ذلك العلة الشديدة ، والثنية قلة الأعوان ، والثالثة طول الكتاب."

والجاحظ لا يجد الاستطراد أمرا معيبا ففيه بعض المتعة والترويح على القارئ، فيدفع عنه السآمة والملل، يقول عن ذلك: " وإن كنا قد أمللناك بالجدّ والاحتجاجات الصحيحة لتكثر الخواطر وتشحذ العقول فإننا سننشّطك ببعض البطالات وبذكر الملل الطريفة والاحتجاجات الغريبة."

مجمل القول إن كتاب (الحيوان) موسوعي شامل عدة موضوعات يعكس عبقرية الجاحظ وقرته على التحليل والولوج ي عدة موضوعات في آن واحد.

يقع كتاب (الحيوان) في سبعة أجزاء وقد طُبع عدة مرات منذ 1905.

ومن نافلة القول نشير إلى أن عدة مؤلفين قدامى انتهجوا طريقة الجاحظ في التأليف حول عالم الحيوان نحو "حياة الحيوان" للدميري.

2. ***البيان والتبيين للجاحظ***

قيمة الكتاب:

قال المسعودي صاحب (مروج الذهب): "وللجاحظ كتاب حسان ، منها (البيان والتبيين) وهو أشرفها لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب."

وجاء في مقدمة ابن خلدون: "سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه –يعني الأدب- أربعة دواوين وهي أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب

الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها."

محتوى الكتاب:

على الرغم من التزام الجاحظ مذهب الاستطراد ولتوسع عند الطرح إلا أن القارئ لهذا الكتاب يكاد يستبين أنه يدور حول فكرتين هما توضيح : - مفهوم البيان كعلم من علوم البلاغة ودوره في تبيين مبتغى الكاتب أو القائل، و- الردّ على الشعوبيين.
أفاض الجاحظ في الحديث عن الفصاحة والبلاغة ومخارج الحروف وعيوب النطق عند بعض الناس، حيث استهلّ كتابه بالتعوذّ من شر الحصر والعيّ وأن الصمت خير منهما، وأشاد من خلال آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأشعار كثيرة بفضل الفصاحة البيان.
نلمس في هذا الكتاب بعض الآراء عن مفهوم البلاغة عند الأمم الأخرى كالفرس والروم واليونان، على الرغم من عدم ظهور كتابيْ (الخطابة) (وفن الشعر) لأرسطو وقتئذ.
احتلّ فن الخطابة حيّزا واسعا من هذا الكتاب لانتشاره وازدهاره في العصر العباسي، حيث استغل الجاحظ ذلك الواقع في تحديد قواعدها وأصولها ، فقد كان يعدّها صفة مميّزة للعرب تفرّدوا بها بين الأمم وعُرفوا بها.
ولأجل ذلك تحمّس الجاحظ للعروبة وانتفض ضد النزعة الشعوبية، فجاء كلامه عنها مشحونا بالغضب ينمّ على مرارة وانفعال. يقول في ذلك: " اعلم أنك لم تر قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه، ولا أشدّ استهلاكا لعرضه، ولا أطول نصبا، ولا أقلّ غنما من هذه النِّحلة..."
طُبع (البيان والتبيين) عدة مرّات وصدر في أربعة أجزاء.

الكامل للمُبرّد (ت 286 ه)

صاحب الكتاب:

المبرّد من أبرز علماء عصره في الصرف والنحو عموم اللغة، قيل عنه:" كان حسن المحاضرة فصيحا بليغا مليح الأخبار، ثقة فيما يرويه، كثير النوادر، فيه ظرافة ولباقة." تتلمذ على يد السجستاني والمازني وغيرهما، حتى صار إمام

البصريين في بغداد، وكان معاصرا لندّه في إمام الكوفة أبي العباس ثعلب. ومن أبرز تلامذته: الأخفش الأصغر الذي ساهم في جمع كتاب المبرّد وروايته وتبويبه.

محتوى الكتاب:

هو كتاب في اللغة والنحو والتصريف والأدب، جاء في مقدمته: "هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب، ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة، والنية أن نفسّر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحا وافيا، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيا."

يتضح لنا أن هذا الكتاب يجمع بين دفّتيه الكثير من مسائل النحو إلى جانب مسائل في الأدب شعره ونثره وأخبار المتقدّمين في الحرب والسياسة، فهو يشبه (البيان والتبيين) غير أنه يميل إلى الجفاف والتنظير نتيجة غلبة قضايا النحو عليه بخلاف كتاب الجاحظ الذي تغلب عليه روح الدعابة والفكاهة.

ومن مزايا (الكامل) أنه عربي صرف لم تتسرب إليه روافد الثقافات الأجنبية التي كان يزخر بها العصر العباسي.

يمتاز كتاب (الكامل) أيضا بالاستطراد شأن أغلب المجاميع الأدبية في ذلك العصر، وقد سبقت الإشارة لذلك عند الجاحظ.

3. عيون الأخبار لابن قتيبة (ت 276 ه)

صاحب الكتاب:

من أبرز علماء القرن 3 ه، كان حسن الأسلوب متمكنا في اللغة والتصريف وعلوم القرآن والحديث، ومن روّاد النقد الأدبي، تتلمذ على يد شيوخ بغداد أمثال:

السجستاني، وقيل عنه: " هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة،فإنه خطيب السنة كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة."

من أبرز مؤلفاته: (أدب الكاتب) و (عيون الأخبار).

محتوى الكتاب:

كتاب متخصص في الأدب فلم يجمع من مسائل اللغة ونحوها وصرفها شيئا، قضى مؤلفه زمنا طويلا يجمع مادّته ويتقصّاها من مواردها ويبوّبها ويصنّفها قبل أن يُخرجه للنور.

وهذا الكتاب مثل سائر المجاميع الأدبية في عصره مليء بالأخبار المتنوعة والمختلفة، غزير المادة الشعرية والنثرية والإخبارية، يقول في مقدمته: " إن هذا الكتاب وإن لم يكن في القرآن والسنة وشرائع الدين وعلم الحلال والحرام، دالّ على معالي الأمور، مرشد لكريم الأخلاق، زاجر عن الدناءة، ناه عن القبح، باعث على صواب التدبير، وحسن التقدير، ورفق السياسة، وعمارة الأرض..."

من مزايا هذا الكتاب انه يجنح نحو التبويب والترتيب بخلاف سابقيْه، وقد قسّمه إلى عشرة أبواب:

- كتاب السلطان: يجمع فيه أخبارا تتعلق بأمور الراعي تجاه رعيّته، واختيار عمّاله وآداب صحبته، والمشاورة والقضاء بين الناس والعدل والظلم... وكلها أخبار تعكس صورة المجتمع العباسي آنذاك.
- كتاب الحرب وما يتّصل بآداب الحروب ومعاملة النساء والأطفال ، وفيه أخبار عن الخدع والمكائد، وعن العدّة والسلاح، وأخبار عن الشجعان والجبناء، ويتخلل ذلك كله نصوص أدبية وافية من أشعار وخطب ووصايا.
- كتاب السؤدد: أي الشرف والمجد وما يتصل به من أخبار عن الحلم والغضب والعز والذلّ والمروءة والحياء والعقل....
- كتاب الطبائع والأخلاق: فيه حديث عن العادات الذميمة التي لا تُحمد في المرء من حسد ووشاية وما قد ينوي في النفس البشرية من طباع حيوانية.
- كتاب العلم والبيان: وفيه أخبار عن قيمة العلم والحفظ وفضل المعرفة، وقيمة القرآن ومكانة الشعر والخطابة ، وأخبار عن الفصاحة والبداهة والارتجال...
- كتاب الزهد: وفيه أخبار عن الدعاء والتهجد والمناجاة والعبادة والوعظ والكبر والشيب، وأخبار عن كلام الزهّاد والنسّاك وأشعارهم...
- كتاب الإخوان: يتحدث فيه عن العلاقات الاجتماعية مثل الحث على المحبة والتعاون والهدايا والتعازي..
- كتاب الحوائج: وفيه أخبار عمّا يحتاجه المرء وما يتصل به من شكر وثناء، وعن آداب العلاقة بين السائل والمسؤول.

- كتاب الطعام: وفيه أخبار عن صنوف الأكل والفاكهة ، وحديث عن الجوع والصيام والحِمية والدواء....
- كتاب النساء: وفيه أخبار عن أخلاق المرأة وصفاتها ، من دمامة وقبح وحسن وجمال، وعن أخبار المهور والنكاح والطلاق والولادة...

هذا التصنيف يذكّرنا بالرسائل الموضوعية التي ظهرت في القرن 2 ه وتزامنت مع ظهور المعاجم، ففيها شيء من الترتيب والتصنيف، غير أن هذا لم يمنع ابن قتيبة من الوقوع في الاستطراد شأن كل الأوّلين، وفي ذلك يقول عن نفسه: " ولم أُخلِ الكتاب مع ذلك من نادرة طريفة وفطنة لطيفة وكلمة معجبة وأخرى مضحكة، لأُروّح بذلك على القارئ من كدّ الجِدّ وإتعاب الحق، فإن الأذن مجاجة وللنفس حمضة، وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين...."

ملاحظة هامة:

هذه مجموعة قليلة من مصادر الأدب عند القدامى والتي اتسع المجال لذكرها، غير أن الباحث يستطيع الوقوف على غيرها كثير ، ومن أمثال تلك المجاميع الأدبية:

- العقد الفريد لابن عبد ربّه الأندلسي (ت327 ه)
- الأمالي لأبي علي القالي (ت356 ه)
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (ت356ه)
- زهر الآداب لأبي إسحاق الحصري القيرواني (ت453ه)
- نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين النويري (ت733ه)
- صُبح الأعشى في صناعة الإنشا لأبي العباس القلقشندي.(ت 821ه)
- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب لأبي العباس المقّري.(ت1041ه)